الفصل الخامس

وارتفع الضحى من الغد فإذا ضوءه المتدفق يغمر فتاتين معتنقتين قد أغرقتا في نوم عميق، لا يوقظهما منه حرُّ الشمس المحرقة، ولا مسُّ الأرض الغليظة، ولا اضطراب الدواجن من حولهما وهن يزدحمن على ما يُنثر لهن من حَبٍّ، ويختصمن فيما يُصبُّ لهن في الصحاف من ماء، ويخفقن بأجنحتهن في الهواء مقبلات مدبرات، واقعات طائرات، ينادين ويتناجين ويتناغين، قد ملأهن إشراق الصبح مرحًا، فملأن الجو حياة ونشاطًا وحبًّا.

وكأن هذا كله كان يدعوني دعاءً ملحًّا من أعماق النوم الذي كنت مغرقة فيه، ويدنيني قليلًا قليلًا من اليقظة، وإذا أنا أتلقى الحياة دون أن أتمثل الحياة، وأستقبل النشاط دون أن أشعر بالنشاط؛ ثم أحس كأن شيئًا خفيفًا رشيقًا قد مسَّ كتفي مسًّا يسيرًا، فأنتبه، ولا أكاد أفتح عيني وآتي بعض الحركة حتى أرى حمامة مذعورة قد ارتفعت غير مسرفة في الارتفاع، ولم تكد تطير حتى وقعت في رشاقة وظرف غير بعيد، فأستوي جالسةً وألقي نظرة إلى أختي وقد ثاب إليَّ حديثنا كله مرة واحدة فملأ قلبي إشفاقًا وحبًّا وحزنًا، وتقع عيني عليها وقد استراح جسمها المتعب، واستقر قلبها المضطرب، وهدأت نفسها الثائرة، وزالت الراحة عن وجهها ذلك الغشاء المظلم الكئيب، فبدت نضرته حلوةً مشرقة شائقة، كأنها نضرة الزهر وقد تفتح لضوء الصبح وقطر الندى، وإذا في هذا الوجه الهادئ النضر جمالٌ للعين، وفتنة للعقل، ومتعة للقلب، وإذا أنا أنظر إليه فلا أكاد أحول عيني عنه، مستريحةً مُعجبةً مكبرة، ولكني أسمع من ورائي صوتًا خافتًا يملؤه الحنان والحزن ويقول كأنه يتحدث إليَّ: انظري ... انظري ... وأطيلي النظر! ألست ترينها حسناء رائعة الحسن؟